

الجرائم الثقافية في الجزائر ابان الاحتلال

"الاعتداء على المكتبات والكتب"

*Les crimes culturels en Algérie durant la période coloniale**- attaques aux bibliothèques et au livres -*

د: حياة سيدي صالح ، جامعة خميس مليانة "الجيلالي بونعامة" -الجزائر-

h.sidi-salah@univ-dbkm.dz

تاريخ النشر 2025 /12/31

تاريخ القبول 2025 /12/02

تاريخ الاستلام: 2025 /10/17

ملخص:

تميّزت السياسة الفرنسية في الجزائر بصبغة الجريمة التي شملت مختلف الميادين "السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، والثقافية"، استهدفت من خلالها السيادة فانهكتها، مع نهب الثروة ومسح الهوية وضرب المقومات الشخصية والحضارية للمجتمع الجزائري، وتعتبر جريمة الاعتداء على المكتبات والكتاب إحدى أفظع الجرائم الثقافية الاستعمارية في الجزائر. سنحاول من خلال المقال طرح إشكالية مفادها البحث في طبيعة الواقع الثقافي في الجزائر خلال فترة الاحتلال، وتقييم السياسة التعليمية الفرنسية ، وشرح الأسباب والدوافع التي أدت إلى الاعتداء على المكتبات والكتب؟ وهي إشكالات نخالها وجيمة، لتكون طريقا نحو تفسير الجريمة التي طالت الكتاب والمكتبات والممارسة من قبل الاحتلال. ولا يختص أمرا لاتلاف للكتب والمكتبات بالجزائر فحسب، بل تقدم المداخلة نماذج أخرى للاستدلال بها كعينات عالمية لعملية اتلاف الكتب قديما ومعاصرا.

الكلمات المفتاحية: الجريمة، السياسة التعليمية، الاحتلال، المكتبات، الكتب، الهوية.

*- المؤلف المرسل

Abstract:

French policy in Algeria was tainted by a criminal dimension that affected various areas—political, economic, social, and cultural—aiming to violate sovereignty, plunder resources, distort identity, and attack the very foundations of Algerian society.

The crime of attacking libraries and books is considered one of the cultural crimes in colonial Algeria.

In this study, we will attempt to raise an issue based on the nature and reality of culture in Algeria during the occupation period, to evaluate French educational policy in Algeria, and to explain the reasons and motivations that led to the attacks on libraries and books. These questions seem legitimate to us and constitute a path toward explaining the crime that struck books, libraries, and cultural practices under the occupation.

The destruction of books and libraries is not limited to Algeria; this presentation will also include other significant examples worldwide concerning the destruction of books, both past and present.

Keywords: Crime, education policy, libraries, books, identity, occupation.

مقدمة :

لم يكن الغزو الثقافي الفكري منفصلا عن الغزو العسكري ، باعتباره جزء من الهمجية الاستعمارية التي عصفت بجميع المقومات الحضارية، وقد مرّ الغزو الثقافي بالجزائر بعدة مراحل، أهمها مرحلة الهدم الممنهج للمؤسسات الثقافية ومكوناتها¹ بما فيها الكتاب والمكتبة، حيث لجأت سلطات الاحتلال الفرنسي إلى إتلافها بطرق مختلفة لثلثدمير والسرقه والحرق والتمزيق والبيع وغيرها. والهدف من ذلك هو إتلاف معالم الشخصية الجزائرية وتاريخها، و مسح هوية المجتمع لتسهيل عملية الترويض والاضعاع والسيطرة عليه وعلى مقدراته.

هذه السياسة الفابعة من فكر استعماري غربي وجدناها نكرّس نظرية الهيمنة والاستعباد للشعوب الضعيفة التي تختلف عنه في العالم الشخصية، فجعلت من الانسان فيها هدفا لاستغلاله والسيطرة على ثرواته ومقدراته. ولذا سنتطرق من خلال هذه المداخلة الموسومة الجرائم الثقافية في الجزائر ابان الاحتلال" الاعتداء على المكتبات والكتاب "إلى توضيح صورة أخرى للعدوان الفرنسي في الجزائر.

¹-حياة سيدي صالح: اللجان الفرنسية وقضايا الجزائريين 1871-1895، دار الهدى، 2013، ص57،56.

والمتمثل في المساس بالكيان والهوية الجزائرية من خلال جرائمها الثقافية، التي تجلت في منع التعليم والمساس بمختلف المؤسسات التعليمية والثقافية، أبرزها انتهاك حرمة الكتاب والمكتبة.

1 - الواقع الثقافي في الجزائر قبل الاحتلال

عرفت الجزائر قبل الاحتلال - وبشهادة العدو- انتشارا واسعا للتعليم حيث تجلت مظاهره في كثرة الكتاتيب والزوايا واقبال الناس على التلقي للعلوم، وتميز بذلك المجتمع الجزائري بنسبه الأمية الضعيفة جدا، وتكاد ان تكون منعدمة، وهذا ما أكدّه الكثير من الباحثين في هذا المجال، فقد أورد الاستاذ توفيق المدني إشارة مفادها أن الجزائر كانت عبر العصور موطنا للعلوم، ولم تشهد أبدا ضعفا في النشاط العلمي، حيث شهدت منذ الفتح العربي الاسلامي ثورة علميه كبيره تجلت في ذلك الازدهار والقطور عبر مختلف العلوم². مثلما يشير أبو القاسم سعد الله الى أنّ ه بالرغم من سلبية الوجود العثماني في الجزائر التي تظهر على مستوى الميدان الثقافي خصوصا إذ أنهم لم يؤسسوا جامعة كالقرويين أو الأزهر أو الزيتونة تبث العلم وتخرج العلماء والكتاب³، ولكنهم تركوا التعليم حرا يقوم على أساس مساهمة المجتمع، وفي الوقت نفسه عززوا في ذلك دور الوقف لفتح مجال العناية بالتعليم والمتعلمين.

كما نشير إلى أن البعض قد دوّن ملاحظاته بئن فترة الحكم العثماني عرفت تراجعا واضحا للعلوم العقلية أمام الاقبال على العلوم النقلية، ووصفت هذه المرحلة بمرحلة الجمود الفكري، وهذا ما أشار إليه العالم عبد القادر الراشدي حين قال:

خبرا عني المؤول بأني كافر بالذي قضته العقول
ما قضته العقول ليس من الد ين انما الدين ما حوته النقول⁴

كما عبر عن الوضع أ بو القاسم سعد الله ووصف هذه الظاهرة -الجمود الفكري - خلال فترة الحكم العثماني حينما كتب في مصنفه تاريخ الجزائر الثقافي قائلا: "إن المؤسسات الثقافية في العهد العثماني، لا تكاد تخرج عن المسجد والمدرسة والزواية والمكتبة، ومعظمها كانت للتعليم أكثر مما كانت للثقافة بمفهومها اليوم. ولم يكن من بين هذه المؤسسات جامعه او معهد عال رغم أن بعض

²- المدني توفيق، كتاب الجزائر، المطبعة العربية في الجزائر، 1932، ص75

³-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، 1989، ج1، ص18.

⁴-المدني توفيق، المرجع السابق، ص 89،90.

المساجد والمدارس والزوايا كانت تبث تعليما في المستوى العالي.⁵ ومع هذا يمكن أن نستشف أمرا لافتا للانتباه من خلال نصه، وهو حكمه على الفترة بالجمود، ولكن بالمقابل يتحدث عن أن بعض الزوايا والمدارس كانت تقدم تعليما عاليا ؟ وإنه بالعودة إلى ما كتبه مؤرخ الفترة العثمانية الدكتور ناصر الدين سعيدوني من خلال كتاب "الجزائر في التاريخ" سجلنا بعض الإشارات التي تجعلنا نقف يقينا على واقع الثقافة والتعليم بالجزائر العثمانية، وهو يقدم شهادات من أفواه الأجانب عن حالة التعليم حتى قال قائلهم: " وهذه المدينة لا تخلو من قراء نجباء وعلماء أدباء وأعلام خطباء، مساجدهم بالتدريس معمورة ومكاتب أطفالهم بالقراءة مشحونة ومشهورة، وقد ذكرت ما فيه من علماء أخيار...⁶ ". ويؤكد آخرون بأن التعليم في الجزائر قبل الاحتلال كان يقوم على المؤسسات الخيرية، وجهود السكان، وكانت الأسرة حريصة كل الحرص على إرسال ابنائها إلى المدارس لتلقي العلوم خاصة تعلم اللغة العربية وحفظ كتاب الله.⁷

وهكذا نلاحظ بأن موضوع التثبث من الحالة الفكرية التعليمية والثقافية ببلادنا إبان الحقبة العثمانية تقتضي مزيدا من البحث والتنقيب، حتى لا نقع تحت طائلة أحكام تعتمد على جزء من النصوص في وقت غابت نصوص كثيرة تفصل في الحياة الثقافية وتقدم واقعا غير الذي هو في أذهان من اقتصر على مرجع أو مصدر فريد وحيد. ونعتقد أن العودة إلى قراءة الإجازات الممنوحة من الشيوخ للطلبة، وتتبع حركة الرحلة العلمية، وفرز نصوص الدروس التي كانت تقدم في الزوايا والكتاتيب والمساجد، والنظر في حجم الأوقاف من خلال قراءة وثائقها، والاطلاع على بعض ما تم كتابته وطبعه في تلك الحقبة، قد تعطينا معلومات واضحة لواقع الحياة العلمية الثقافية في العهد العثماني

1.2 سياسة فرنسا التعليمية وموقف الجزائريين:

استمر التعليم على حاله في السنوات الأولى من الاحتلال، وذلك لانشغال السلطات الفرنسية بالجانب العسكري وعمليات التوسع، وقد أصدرت سلطات الاحتلال في هذه المرحلة قرارا بوضع اليد على الأوقاف الإسلامية في سبتمبر 1830 في عهد «دي برمون»⁸. وحورب رجال العلم والأئمة وشيوخ

⁵- أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص227.

⁶- راجع ناصر الدين سعيدوني، المهدي لابوعبدلي، الجزائر في التاريخ، ج4، وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 137-145. وهو فصل مهم لمن أراد أن يخوض في تحليل واقع التعليم و الثقافة بالجزائر في العهد العثماني.

⁷- بن عكي محمد أكلي ، محاولة تسليط الضوء على الظاهرة الثقافية ، التربوية قبل وأثناء الاحتلال

الفرنسي للجزائر، مجلة المربي ، مج1، ع1، 1969، ص 17 . أنظر المقال في

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/98722>

⁸- نفسه، ص19.

الزوايا وحدّ من نشاطهم⁹، وقد أشار "ألكسي دوتوكفيل" إلى ذلك قائلا: "لقد استولينا في كل مكان على الأموال، أموال المؤسسات الخيرية التي كانت تسدّ حاجات الناس والقيام على التعليم العام... وتركنا المدارس تتداعى وبعثنا الحلقات الدراسية... وجعلنا المجتمع الإسلامي أكثر جهلا"¹⁰. وفي إطار سياسة التوسع تمّ تدمير المدارس (المسيد) والزوايا والكتاتيب، فلم تكتف فرنسا بتجريد الجزائري من أرضه ومسح شخصيته، بل عملت على افساد الأفئدة والعقول، وتجلّى ذلك في إغلاق المساجد والمدارس التي كانت تعلم العربية، وعملت على محاربة اللغة العربية وتقديم اللغة الفرنسية كبديل، وبذلك أصبح الجزائري بين خيارين إما الفرنسية أو التجهيل¹¹.

2. 2 منهج فرنسا التعليمي في الجزائر واثاره

السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر كانت جزء من السياسة العامة، التي انتهجتها إدارة الاحتلال بهدف اخضاع الجزائري، وقد جعلت النظام التعليمي أهم ادوات تحقيق مشروعها وسياساتها التي استهدفت استعمار الإنسان وتحويل نموذجة الثقافي. اعتمدت إدارة الاحتلال الفرنسي في تعليم الجزائريين على الانتقائية، حيث لم تكن تسمح لجميع افراد المجتمع الجزائري بالتعلم، انما خصّت الذين اظهروا الولاء للاحتلال، وهذا ما نصّ عليه المرسوم الامبراطوري الصادر في 14 مارس 1857 والذي خصّ الجزائريين الذين خدموا ويخدمون فرنسا، وكذا أبناء الجنود الذين ماتوا أو جرحوا في ميادين الحرب خدمة للعلم الفرنسي، وكانت السياسة الاستعمارية تقدم تعليما مربوطا بمطالب السوق الذي يسيطر عليه المستوطنون¹²، ثم أصبح تعليما يتناسب ونوع الصناعات الموجودة في الجزائر، فكلّنت صناعه الخشب بالنسبة للجزائري،

⁹- محمد بن الشوش، الغزو الفكري للجزائر 1830-1870، مجلة المصادر، ع2008، ص88.

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/14531>

¹⁰- إبراهيم لونيبي، أوضاع التعليم في الجزائر في منتصف القرن 19 من خلال جريدة المبشر، مجلة

الصراع، ع19، 2009، ص16.

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/52284>

¹¹- بن عكي، نفس المرجع السابق، ص19.

¹²- سمير أبليش، أهداف وخصائص السياسة التعليمية في الجزائر، مجلة الدراسات والبحوث

الاجتماعية، ع23، 2017، ص130، 131.

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/79456>

حيث لم تكن صناعه مربحة، في حين كان الأوروبي يتوجه الى الصناعات الميكانيكية¹³ التي كانت تلقى رواجاً كبيراً في هذه المرحلة. وقد انقسم التعليم بالجزائر في هذه الحقبة الى قسمين:

1- تعليم متطور توفر له كل الوسائل يكون اجبارياً ومجاناً (قانون جول فيري 1882) وهو مخصص لأبناء المستوطنين وفئة قليلة جداً من أبناء أعوان الإدارة.

2- تعليم ضعيف ومتخلف، موجه لفئة قليلة من الجزائريين ، الهدف منه تكوين يد عاملة لخدمة المستوطنين والاقتصاد الفرنسي، عرف بالتعليم المهني، وقد وصف الاديب المصري "محمد فريد بك" التعليم في الجزائر خلال زيارته سنة 1901 قائلاً: "إنّ الاهالي هناك يعاملون بقوانين خاصة (استثنائية) في غايه الشدة والصرامة، فهم محرومون من الكتابة ومن مطالعة الكتب والجرائد، ولا يجوز لهم تأسيس مطبعة او جريدة... ومنعت عنهم الجرائد العربية"¹⁴.

3 - المكتبات مفهومها وأهميتها

تعدّ المكتبات من أهم المعالم التي تدل على مستوى التقدم، الحضاري والثقافي لدى شعوب العالم، فهي كنز المعلومات الذي يحفظ تراث الأمم وتاريخها، وإسهامات علماءها ونخبها في الحضارات الإنسانية.¹⁵ وتكمن أهمية المكتبات على اختلاف أنواعها من مكتبات عمومية وجامعية ومدرسية وخاصة، في تنمية ملكة الشخص ودفعه نحو القراءة والمطالعة، وتساهم المكتبات من جانب آخر في الحفاظ على التاريخ والموروث الحضاري البشري، وفي تسجيل الاكتشافات التي توصل اليها الانسان عبر العصور، من خلال توفير فرصة الاطلاع على الرصيد الفكري والعلمي بشكل مجاني، وتعد المكتبات عبر التاريخ أهم وسائل التواصل المكتوب والمنقول بين البشر، هذا التواصل الذي يتم غالباً من خلال المناقشات التي تتم بين الناس بطريقة مباشرة وغير مباشرة، وهذا ما يزيد في إثراء الأفكار بين البشر ويربط العلاقات من خلال عامل التأثير والتأثر، والمكتبات أهم وسيلة اعتمدها ويعتمدها طالب العلم للوصول إلى المراجع والمصادر ، ومن ذلك الوصول الى المعلومة¹⁶ وإلى المعارف على تعدد واختلاف مجالاتها وتخصصاتها.

3. 1- الاعتناء على الهوية والذاكرة من خلال المساس بالكتاب والمكتبة

¹³ -مالك بن نبي، في مهب المعركة ارهاصات الثورة ،دار الفكر الإسلامي ،دمشق 1981، ص43.

¹⁴ -بن عكي ،المرجع السابق ،ص21.

¹⁵ -نبيل دربيخ ،إحراق المكتبات ومخازن المعرفة عبر العصور جرائم في حق الذاكرة و الحضارة والتاريخ
مجلة العبر للدراسات التاريخية والاثريّة في شمال إفريقيا ،مج6، ع2، 2023، ص 550.

<https://www.asjp.cerist.dz/en/article/227931>

¹⁶ -نبيل دربيخ ،المرجع السابق، ص550.

تعدّ المكتبات وما تحويه من خزائن للمعارف والعلوم ومن خلالها الكتب، أحد أهم ضحايا النزاعات والصراعات والحروب، وقد تعرضتّ لعدد من الجرائم والاعمال التخريبية الهمجية عبر العصور.

تعرضت الكثير من المكتبات ومحتوياتها من كتب وسجلات ومخطوطات منذ القديم لأعمال تخريبية واستيلاء وسرقات، كما لحق الضرر بالكثير من ارسدها من خلال العبث بها وحرقتها وإتلافها، ومن ابرز الأمثلة عن ذلك مكتبة الإسكندرية القديمة من قبل يوليوس قيصر في حدود العام 48 قبل الميلاد¹⁷، ومكتبة بغداد في الوسيط والمعاصر من قبل مغول الماضي والحاضر، ومكتبة سرايفو مع بداية صيف 1992 من قبل الصليبيين المتعصبين، حيث أحرقت آلاف المخطوطات الإسلامية والعربية والتركية والفارسية على يد الجيوش الصربية، وتعرضت الآلاف من المخطوطات الإسلامية المتنوعة للإتلاف، والتي كانت تحفظ بالجوامع، فالغالبية العظمى من الجوامع القديمة بالبوسنة كانت نظم العديد من المخطوطات بمكتباتها¹⁸، مثلما تعرضت المكتبة الجامعية في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي إلى نفس المصير على يد المنظمة الفرنسية الارهابية الإجرامية (O.A.S)

1.3 أسباب ودوافع حرق المكتبات وإتلاف الكتب

تعددت أسباب ودوافع حرق المكتبات وإتلاف الكتب والمخطوطات فمنها العقائدية والشخصية والسياسية.

1.1.3 أسباب شخصية :

يقوم الفرد بإضرار النار في كتبه لأسباب شخصية ذاتيه، ولظروف خاصة ومن أمثلتها في التاريخ ما قام به الفيلسوف والاديب "ابو حيان التوحيدي"¹⁹ الذي بلغ به اليأس والقنوط الى حدّ

¹⁷ - راجع مقال حسين عبد البصير، مَنْ حرق مكتبة الإسكندرية القديمة ؟

<https://www.almasryalyoum.com/news/details/2598690>

¹⁸ - أنس كارتش، مأساة المخطوطات الإسلامية في البوسنة والهرسك، مؤتمرات الفرقان، لندن

1995، ص 105، 106، 107.

¹⁹ - هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي البغدادي، ولد في بغداد عام 310 هجري، غلبت كنيته اسمه فاشتهر بأبو حيان التوحيدي، قيل أصله من شيراز أو نيسابور، سبي التوحيدي نسبة الى كون أبيه كان يبيع نوعا من التمر في العراق يقال له تمر التوحيد، وهو من أبرز الأدباء والفلاسفة في القرن 4 هجري، من مؤلفاته "الامتناع والمؤانسة" و"البصائر والذخائر" و"المقابسات" و"الهوامل والشوامل" و"الإشارات الإلهية والانفاس الروحانية" توفي عام 414 هجري. أنظر، نادية تيجال، تهمة الزندقة عند أبي حيان التوحيدي، الأثر-مجلة الآداب واللغات 6، 2007، ص 62.

حرق كتبه، وقد عبّر عن ذلك بقوله: " ... لقد امسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخل، مستأنسا بالوحشة، قانعا بالوحدة، معتاد الصمت، ملازما للحيرة، محتملا للأذى، بائس من جميع ما أرى ". وبالإضافة إلى أبي حيان التوحيدي هناك علماء كثيرون اعتزلوا المجتمع، وفضلوا الابتعاد عن الناس، وقد منعت كتبهم، نذكر منهم على سبيل المثال "سفيان الثوري" و"أبي الحسن الأشعري" و"جلال الدين السيوطي" وأبو بكر الجعادي²⁰، وغيرهم.

2.1.3. لأسباب عسكرية:

تعتبر من أهم مسببات حرق المكتبات واثلاف وسرقه الكتب، وقد ساهم الاحتلال بشكل عام عبر التاريخ بالعبث بتراث الشعوب المحتلة، ومن أبرز الأمثلة في ذلك تنكيل المغول بمكتبة بيت الحكمة في بغداد، حيث دمر "هولاكو" 36 مكتبة في بغداد، وذلك سنة 656 هجرية. ثم عاد الى تدمير المكتبات في بغداد الأمريكيون خلال سنتي 1991 و 2003 حيث دمروا مكتبات بغداد والعراق، بشكل عام ونهبوا الكتب والمخطوطات، ومن أبرز الأمثلة كذلك ما قام به الاحتلال الفرنسي في الجزائر من إتلاف للمكتبات والكتب والمخطوطات خلال فترة الاحتلال، بما فيها طبعاً حرق مكتبة جامعة الجزائر في 7 جوان 1962، ولعلّ الهدف من وراء هذه الجرائم (حرق المكتبات) في رغبة المحتل طمس هوية هذه الشعوب والغاء وجودها والتشكيك في انتمائها، وبذلك تكريس سياسة الجنس المغلوب غير القابل للتعلم في كل المجالات بما فيها المجال الثقافي، وهذا ما ادّعته فرنسا في الجزائر حيث أصرت، على انكار وجود الدولة الجزائرية، وسعت إلى إخفاء كل الشواهد تأكيداً لمزاعمها وتكريساً للفكرة التي ارادت ترويجها، من أنّ الجزائري لم يتمكن يوماً من تكوين حضارة.

3.1.3. أسباب سياسية دينية

تبرز أمثلة في هذا الشأن لتظهر حضور هذه الدوافع منذ القدم ومن ذلك الإجراء الذي قام به "محمد بن أبي عامر"²¹ في الأندلس، حيث عمد إلى حرق كتب قديمة تختص بعلم المنطق والفلسفة

²⁰-راجع كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي بالمكتبة الشاملة

<https://shamela.ws/book/10521/12>

²¹- المنصور، حاجب الممالك الأندلسية، أبو عامر، محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن وليد القحطاني المعافري القرطبي أحد أهم الشخصيات البارزة في الأندلس، يسمى «الحاجب المنصور»، من الأسرة العامرية ذات السلطة. أصله من اليمن، ساهم جده عبد الملك المعافري بفتح الأندلس مع القائد الفاتح "طارق بن زياد"، كان قائماً بأعباء دولة الخليفة المرواني المؤيد بالله هشام بن الحكم أمير الأندلس، فإن هذا المؤيد استخلف ابن تسع سنين، وردت مقاليد الأمور إلى هذا الحاجب، فعمد إلى خزائن كتب الحكم، فأبرز ما فيها، ثم أفرد ما فيها من كتب الفلسفة، فأحرقها بمشهد من العلماء، وطمع كثيراً منها، وكانت كثيرة للغاية راجع ابن سعد: كتاب الطبقات، ج 17، ص 16.

والنجوم، وعلوم الإغريق وذلك بهدف التقرب من العامة وكسب ودّهم وإرضاء الفقهاء، على اعتبار أنّ تلك العلوم كانت مذمومة عند أهل الاندلس ولدى غالبية علمائها.

كما تعتبر جرائم الذاكرة التي ترتكب في حق ثلاث مؤسسات ثقافية مهمّة في الحفاظ على الموروث الحضاري الإنساني وهي المتاحف والمكتبات، ومراكز الأرشيف وتتوسع لتشمل الصحف والمؤسسات التعليمية والنوادي الفكرية والأدبية والفنية والمساجد والزوايا والتحف والآثار، وقد شهد العراق في أفريل 2003 عمليات نهب لمتاحف بغداد والموصل ولعشرات الألاف من المواقع الأثرية، كما تمّ تدمير المكتبة الوطنية العراقية التي تأسست سنة 1961 والتي كانت تضم خلال الثمانينات من القرن 20 أزيد من 417,000 مجلد و 2618 مجموعة من الصحف والدوريات و 4412 كتابا نادرا وقدّرت مقتنياتها عشية الغزو الأمريكي بمليوني مطبوعة رقمية، كما تعرضت مكتبة الأوقاف التي تقع على بعد 500 متر من المكتبة الوطنية للنهب والحرق²². وأتبع الأمريكيون هذه العملية بملاحقة أدمغة العراق من علماء ومفكرين، والقيام بتصفيتهم، ضنا منهم شل العقل العراقي الشهود له عبر التاريخ بالإبداع.

3. 2 حرق وإتلاف المكتبات في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي

كانت المكتبات العامة والمساجد والزوايا في الجزائر، قبل الاحتلال تتوفر على مخطوطات هائلة ومهمة، وكانت مكتباتها الخاصة منتشرة عبر الوطن، لدى العائلات ذات المكانة العلمية وعند الأعيان، وكانت العائلة الواحدة تتوفر على بضعة ألاف من المخطوطات التي كانت في حالة جيدة، وكانت مكتبات مساجد مدينة الجزائر بما فيها الجامع الكبير تحوي نفائس المخطوطات التي تجاوز عددها حسب التقارير 40,000 مجلد²³.

كانت الوثائق والمخطوطات من ضمن ضحايا الجيش الفرنسي في الجزائر، حيث اتلفت المخطوطات والوثائق في القصبة أمام أعين القادة العسكريين، وفي مقدمتهم قائد الحملة "دوبورمون" الذي اشتهر بفرض التوقيع على وثيقة الاستسلام من قبل حكام الجزائر، هذه الوثيقة التي نصّت على ضرورة احترام فرنسا لهتلكات الجزائريين والتعهد بالحفاظ عليها.

<https://www.islamweb.net/ar/library/content/60/3825>

²²-نبيل دربيخ، المرجع السابق، ص556.

²³- فوزي السايح، استراتيجية السياسة الفرنسية في محاربة المقومات الثقافية وهدم المؤسسات

الثقافية و الدينية في الجزائر 1830-1870، مجلة الاحياء، المجلد 21، ع29، 2021، ص676.

<https://journals.univ-batna.dz/index.php/elihyaa/article/view/583>

وقد تسلط ضباط المكاتب العربية الذين تمركزوا في كل مدينة وكل دوار، وكانوا يريدون معرفة كل شيء عن العائلات والأفراد وعن الأنساب والتواريخ وعن التراجم والتصوف واللغة، وغيرها فكانوا يأخذون كل ما وقعت عليه أيديهم وأعينهم قهرا، واستعملت هذه الوثائق والمخطوطات المنهوبة من قبل الكثير من المؤرخين، والمفكرين، والمستشرقين دون أن تنسب إلى أهلها (الجزائريين)، وقد وصل الأمر ببعضهم إلى حد تحريفها أمثال "شارل فير"، و"بروسلار" و"بيليسييه دي رينو"، و"هانوتو"، و"لويس رين" وغيرهم²⁴. ومن مظاهر الاعتداء الهمجي على ثروة الجزائر الفكرية أن الجندي كان يشعل غليونته بالوثائق ذات الأهمية الكبرى، كما أرسلت بعض الوثائق المهمة كذكرى²⁵ من قبل الجنود الفرنسيين لعائلتهم وأصدقائهم بفرنسا، كدليل انتصار الصليب على الهلال والانتقام من الإسلام والثأر للمسيحية، والتأكيد طبعاً على أن ما تقوم به فرنسا في الجزائر هو حرب عقائدية تستهدف كامل العالم الإسلامي، ولازالت هذه الحرب قائمة، وما يحدث في فلسطين مثال واضح لحضور الدوافع الحضارية الدينية كسبب دافع للإحراق.

استهدف الاحتلال الفرنسي في الجزائر طمس معالم الهوية والحضارة العربية الإسلامية، واستبدالها بالثقافة الغربية المسيحية، وبذلك تأكيد تفوق الإنجيل على القرآن والصليب على الهلال، وهذا ما أكدّه الكثير من الفلاسفة والمفكرين الأوروبيون، فقد ذكر على سبيل المثال المؤرخ والجغرافي الفرنسي "أوجستن بيرنارد" قائلاً: "إننا لم نحضر إلى الجزائر لإقرار الأمن، بل لنشر الحضارة والأفكار الفرنسية، والجزائر ليست مستعمرة كالهند الصينية، ولكنها جزء من فرنسا كما كانت أيام روما، إننا نريد أن نجعل هناك جنساً يندمج فينا عن طريق اللغة والعادات، وسيتم هذا بعد نشر لغة فيكتور هيجو²⁶ الأديب الفرنسي²⁷."

وهذا ما أكدته أيضاً المؤرخة الفرنسية "إيفون توران" في كتابها "التصادم الثقافي في الجزائر المستعمرة" بقولها "بدأ الصراع يوم شرع المحتل بفرض لغته وتفكيره مستعملاً المدرسة والمستشفى، المعلم والطبيب، ولكن المسلمين ردوا الهدية المسمومة لصاحبها الذي قضى حوالي 20 سنة من 1830 إلى 1850 يبني المدارس فلا يجد لها تلاميذ، وينشئ المستشفيات فلا يتردد عليها

²⁴ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،

²⁵ - فوزي السايح، المرجع السابق، ص 667.

²⁶ - قناني ميلود، المحافظة على الهوية في مواجهة الغزو الثقافي إبان الاستعمار الفرنسي، مجلة

الحكمة للدراسات الفلسفية، مج 10، ع 3، 2022 ص 837.

²⁷ - صاحب قصة البؤساء، زار الجزائر وهو نائب في البرلمان الفرنسي سنة 1881 وقد نقل مشاهد عن الجزائر (امرأة في مغارة تأكل صغيرها) لكنه لم ينقل هذه المشاهد على أنها اعتداء على حقوق الإنسان أو على أنها جرائم، إنما نقلها في إطار الدفاع على حقوق العمال.

المرضى وتعددت الصعوبات في وجه الاحتلال وكثرت، وبقي الدين الاسلامي كالإسمنت المسلح يحمي من التفكك والاندماج "وهذا ما أشار إليه كذلك منذ المراحل الأولى للاحتلال الجنرال "هانوتو"²⁸ في كتابه "منطقة القبائل والأعراف القبائلية".

3.3 نماذج للاعتداء على المكتبات والارشيف في الجزائر

بعد احتلال الجزائر مباشرة وضع الفرنسيون أيديهم على المساجد والزوايا في العواصم. وصادروا ما فيها وضموا مداخلها إلى الإدارة المالية (الدومين). وكانت المكتبات الملحقة بهذه المنشآت من ضحايا هذه المصادرة فاخفت الكتب، رغم أنها كانت أحباسا، وتبادلها الأيدي دون حساب أو عقاب. وتلاشت مكتبات مثل مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة التي تحدث عنها الرحالة والباحثون المسلمون، ومكتبات مساجد تلمسان وقسنطينة ومعسكر والبلدية والمدية وبجاية وعنابة و مازونة وغيرها، والكتب التي حبسها صالح باي على مدرسته في قسنطينة، ومحمد الكبير على مدرسته في معسكر²⁹.

1.3.3 الاعتداء على مكتبة الأمير عبد القادر

بعد استلاء الجيش الفرنسي على زمالة (العاصمة المتنقلة) الأمير عبد القادر، تم الاعتداء على مكتبته الثمينة التي كان فيها أنفس الكتب وأثمنها، فقد حطمت و أحرقت ونهبت ومزقت آلاف الكتب والمجلدات، وكانت مكتبة الأمير تحتوي على ما يقارب 5000 مجلد ومخطوط تم اتلافها. والبعض منها نقل الى فرنسا وهو موجود في مكتبة شانتينييه، وقد أهداها الدوق دومال إلى بلدية هذه المدينة، لكن ما أهداه جزء ضئيل جدا من مكتبة الأمير، والملاحظ أنه عندما فقد الأمير عواصمه واستعمل العاصمة المتنقلة، حمل هو وعلماءه وقواده مكتباتهم معهم، ومنها مكتبة زاوية القيطنة الشهيرة ، وكان من بين الذين معه شيوخ علم لا تفارقهم الكتب ومنهم محمد الخروبي، ومحمد بن علال، ومحمد البركاني،

²⁸ -ضابط فرنسي التحق بالخدمة في الجزائر سنة 1847، برتبة ملازم تولى منصب اداري في المكتب العربي، أتقن اللغة العربية والبربرية، عين رئيسا للمكتب العربي بالمدية، وشارك في الحملات العسكرية على منطقة القبائل 1847-1856، عين قائدا مركز ذراع الميزان سنة 1859، وحصن نابليون سنة 1860، ثم مديرا للشؤون الاهلية لمدينة الجزائر سنة 1862، وعاد الى منطقة القبائل "ثكنة حصن فورناسيونال" سنة 1866 كقائد للثكنة، أنظر هانوتو ولوترنو، منطقة القبائل والأعراف القبائلية، ج1، تر:خلف عبد الحميد، دار الأمل، ص8.

²⁹ -أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج5، دار الغرب الإسلامي، 1998،

وابن فريجة، ومصطفى بن التهامي، وحين استولى الفرنسيون على الزمالة انتقلت إليهم تلك المكتبات ولا يعرف مصيرها الى يومنا .

2.3.3- الاعتداء على الارشيف

تعرض الأرشيف الجزائري بما فيه أرشيف الفترة العثمانية إلى الإهمال والإتلاف من قبل السلطات الفرنسية، وقد تولى شؤونها في البداية "البيرو دوفو"³⁰ Albert Devoulx الذي نقل الدفاتر والوثائق التي كانت تحت إشراف الإدارة الفرنسية الدومان (الأملاك العامة) وأودعها مكتبة الدولة العامة، وقد قام بترجمة الوثائق بمساعدة شخصيتان جزائريتان هما "محمد بن مصطفى" و"محمد بن عثمان خوجة"، وقد جمع آلاف الوثائق لي عمل على ترجمتها، وقد نشر الكثير من هذه الدراسات في المجلة الإفريقية، ومن بين دراسته الخاصة بالفترة العثمانية، "دفتر التشریفات" و"عهد الأمان" و"سجل غنائم البحر" و"بيان بثكنات الانكشاريين" و"التعريف بحياة البحار الرئيس حميدو" و"سجل اوجاق الجزائر"³¹ وغيرها وعرف "دوفو" بأول مهندس ارشيفي للوثائق الجزائرية والعثمانية بداية الاحتلال.

3.3.3 حرق مكتبة جامعة الجزائر 7 جوان 1962

انشئت المكتبة الجامعية بموجب قانون 20 ديسمبر 1879، وكان مقرها في البداية في مكتبه صغيرة تابعة لمدرستي الطب والصيدلة اللتين انشئتتا عام 1857، وفي 1888 تم استقرار المكتبة الجامعية نهائيا في البناية الجديدة المخصصة لها، وقد تم إحصاء خلال السنة الجامعية 1909-1910 حوالي 179,680 مجلدا، وفي 1958 تم احصاء حوالي 6 ملايين نسخة. وقد تعرضت المكتبة الجامعية إلى عمل إجرامي من قبل المنظمة الإرهابية (O.A.S) لتضاف هذه الجريمة إلى جرائم فرنسا الثقافية في الجزائر، وتم ذلك بإلقاء ثلاث قنابل فسفورية على مقربة من الجامعة، وقد خلف الحريق إتلاف 400,000 كتاب من أصل 600,000 كتاب ومخطوط³²، بالإضافة إلى تخریب عدد من الهياكل، وقد سجّل خلال هذا الحريق أنّ رجال المطافئ وحسب بعض الشهادات، اتوا على ما أبقاه الحريق حيث صوّبوا خرطوم المياه الى الكتب التي لم تطلها السنة النيران، بحجة منع

³⁰-حافظ أرشيف العرب (الجزائريين) بمصلحة السجلات والدومان (الأملاك العامة)، عضو مؤسس للجمعية التاريخية الجزائرية، مراسل المعهد المصري مديرية أكس وجمعية الإحصاء بمرسيليا وجمعية الآداب والفنون والعلوم بتولون، وضابط حائز على النيشان الملكي في تونس ; les Albert Devoulx ; Edifices Religieux de l'ancien Alger ; typographie Bastide ; Alger 1870 ; p1.

³¹-حنيفي هلايلي ، البيرو دوفو:مهندس أرشفة الوثائق الجزائرية والعثمانية في الجزائر، الحوار

المتوسطي، مج 14، ع1، 2023، ص188. <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/238175>

³²-أمال لعمرس، المقاربة التسويقية في المكتبات الاكاديمية- دراسة حالة المكتبة المركزية لجامعة

الجزائر 1، مجلة علم المكتبات، مج6، ع1، 2014، ص135.

انتشارها وهذا ما يؤكد أنّ هذا العمل الإرهابي ارتكبته المنظمة الإرهابية (O.A.S) بتواطؤ سلطات الاحتلال، وهي بذلك جريمة ترقى الى مستوى جريمة دولة التي لا تزول بالتقادم .

ظَلَّت الوثائق مهمة وعرضة للتلف، والشئ المحفوظ منها هو ما حمله المهاجرون معهم من بعض الكتب بما فيهم "ابن العنابي"، و"مصطفى الكبابي"، وكذا الكتب التي هجرت إلى فرنسا في حقائب الضباط والمترجمين والمستشرقين واللصوص والنواب والادباء وغيرهم، لذلك فإنّ هذا الأرشيف وهذه الكتب التابعة للجزائر هي الآن مبعثرة في مكتبات العالم بما فيها مكتبات الشرق والغرب والمكتبات الفرنسية العمومية منها والخاصة، وقد عبّر حمدان بن عثمان خوجة صاحب المرأة على ظاهرة الاعتداء على المكتبة والكتاب قائلا: "لقد أمر السيد الجنرال كلوزيل بتهديم محلات تدعى القيصرية، كانت تبيع الكتب التي هي أدوات الحضارة، والتي تنير طريق الانسان المثقف، وفيها كان يوجد الناسخون، لأن المطابع معدومة في افريقيا، وبما أن الفرنسيين كانوا ينوون إدخال الحضارة إلى افريقيا فلماذا وقع تهديم هذا المصدر الذي يعطي العلم والمعرفة في جميع الميادين ؟"، وقال أيضا "إنّ هذا السلوك يدل على أنّ هذا الجنرال، بدلا من أن يعمل على تزويدنا بنور العلم والحضارة كان ينوي إغراقنا في الظلمات والجهل"³³، وقد أكدّ مقولة "حمدان خوجة" ما جاء على لسان "الدوق دومال" قائلا: " بناء مدرسة أحسن من فيلق عسكري لإقرار الأمن" وقوله أيضا "لقد تركزنا في الجزائر واستولينا على المعاهد العلمية، وحولناها الى دكاكين او سكنات، او مرابط للخيال واستحوذنا على أوقاف المساجد والمعاهد"³⁴.

وهكذا تعرّض التراث الجزائري - وبشهادة المحتل المدوّن والمخطوط، خاصة المكتوب بأقلام جزائرية، والذي عبّر عن فكرهم وعن انتمائهم - الى الإهمال والإتلاف، حيث نهبت المخطوطات وبيعت في الأسواق، وضيّع تراث جزائري ثمين، وفقدت الجزائر مصادر مهمة بما فيها المخطوطات والتحف والاثار، هذه المصادر التي تعتبر ملكا للأمة وإرثا للإنسانية.

خاتمة :

إنّ تدمير «هولاكو» مكتبة بيت الحكمة ومكتبات بغداد لا يختلف عن جريمة حرق المكتبات في الاندلس وعن تدمير المستعمر الفرنسي لمصادر المعرفة بما فيها المكتبة الجامعية المركزية في الجزائر، كما لا يختلف حرق مكتبة الإسكندرية المتعدد عبر مختلف الأزمنة مع ما عاشته مكتبة البوسنة في

3- حمدان خوجة ، المرأة ، تقديم وتعريب، محمد العربي الزبيري ، منشورات ANEP ، 2005 ، ص245.

³⁴ - فوزي السايح ، المرجع السابق ، ص677.

سراييفو من قبل الصرب، ولا تختلف طبعاً على ما قام به الأمريكيون في العراق سنتي 1991 و 2003 كل هذه الجرائم تشترك في كونها اتلفت ما لا يعد ولا يحصى من كتب ومؤلفات تعدّ ثروة إنسانية، تشهد للحضارات البشرية عبر التاريخ وهي بذلك تصنف ضمن جرائم الدولة في حق الإنسانية بتوقيع كيانات سياسية دولية وما قامت به فرنسا في الجزائر مثال للجريمة المؤسسية مع سبق الإصرار والترصد.

ولا نزايد على المؤرخين والمتابعين لشأن الكتاب والمكتبات حينما نلاحظ التدمير الممنهج والعبث بالفكر الإنساني، من خلال حرق المكتبات أو هدمها وإتلاف الكتب أو سرقتها، وتزوير الرسائل والمخطوطات أو بيعها في أن ندعوا على اعتبار ذلك العمل عملاً إجرامياً واسع النطاق، يدخل ضمن الجريمة الدولية، لأنّ هناك شبكة عالمية بالفعل ساهمت بطريقة أو أخرى في تهريب وبيع وإتلاف المخزون الفكري الحضاري ماضياً ولا يزال ذلك سارياً حاضراً، مما يستوجب أن تدخل ضمن الجريمة الدولية التي يجب أن يفتح بشأنها تحقيقاً معمقاً عم الفكر الذي يعتبر رصيذاً عالمياً لا يقتصر على شعب أو دولة وإنما هو جهد عالمي يستلزم انتباهها ورداً فعلياً عالمياً.

قائمة المصادر والمراجع :

أ - الكتب العربية

- 1 - حمدان بن عثمان خوجة ، المرأة ، تقديم وتعريب، محمد العربي الزبيري ، منشورات، ANEP، 2005.
- 2 - حياة سيدي صالح، اللجان الفرنسية وقضايا الجزائريين 1871-1895، دار الهدى، 2013.
- 3 - سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج 5، دار الغرب الإسلامي ، 1998.
- 4 - سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، 1989.
- 5 - كارتش أنس ، مأساة المخطوطات الإسلامية في البوسنة والهرسك ، مؤتمرات الفرقان، لندن 1995.
- 6 - مالك بن نبي، في مهب المعركة ارهاصات الثورة ، دار الفكر الإسلامي ، دمشق 1981.
- 7 - المدني توفيق ، كتاب الجزائر ، المطبعة العربية في الجزائر، 1932.
- 8 - هانوتو ولوترنو، منطقة القبائل والأعراف القبائلية ، ج 1، تر، خلوف عبد الحميد، دار الأمل

ب - الدوريات بالعربية

- 1 - أبيش سمير ، أهداف وخصائص السياسة التعليمية في الجزائر، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية ، ع 23، 2017.
- 2 - أمال لعمرس، المقاربة التسويقية في المكتبات الأكاديمية- دراسة حالة المكتبة المركزية لجامعة الجزائر 1، مجلة علم المكتبات، مج 6، ع 1، 2014

- 3 - بن عكي محمد أكلي ، الظاهرة الثقافية ، التربية قبل وأثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر ، مجلة المربي ، مج1، ع1، 1969.
- 4 - تبحال نادية ، تهمة الزندقة عند أبي حيان التوحيدي ، الأثر-مجلة الآداب واللغات ع6 ، 2007 .
- 5 - حنفي هلايلي ، ألبير دوفو، مهندس أرشفة الوثائق الجزائرية والعثمانية في الجزائر، مجلة الحوار المتوسطي، 2023.
- 6 - دربيخ نبيل ، إحراق المكتبات ومخازن المعرفة عبر العصور جرائم في حق الذاكرة والحضارة والتاريخ ، مجلة العبر للدراسات التاريخية والآثرية في شمال إفريقيا ، مج6 ، ع2
- 7 - السايح فوزي ، استراتيجية السياسة الفرنسية في محاربة المقومات الثقافية وهدم المؤسسات الثقافية والدينية في الجزائر 1830-1870، مجلة الاحياء، المجلد 21، ع29، 2021.
- 8 - بن الشوش محمد ، الغزو الفكري للجزائر 1830-1870، مجلة المصادر، 2008.
- 9 - نادية تبحال ، تهمة الزندقة عند أبي حيان التوحيدي ، الأثر-مجلة الآداب واللغات ع6 ، 2007 ،
قناني ميلود، المحافظة على الهوية في مواجهة الغزو الثقافي إبان الاستعمار الفرنسي، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، مج10، ع3، 2022.
- 10 -لونيسى إبراهيم ، أوضاع التعليم في الجزائر في منتصف القرن19 من خلال جريدة المبشر، مجلة الصراع ، ع19، 2009.

ت - الكتب والمقالات والمواقع بالفرنسية

- 1- Albert Devoulx ;les Edifices Religieux de l'ancien Alger ;typographie Bastide ;Alger1870 .
- 2- <https://www.alaraby.co.uk.culture> -
- 3- <https://mawoo3.com>
- 4- <https://www.almasryalyoum.com> حسين عبد البصير، من حرق مكتبة الإسكندرية القديمة 2023